

دراسة موازنة بين الأدبيين المكفوفين: أبي العلاء المعرّي وطه حسين

حسن مجيدى

أستاذ مساعد بجامعة حكيم سبزواري، إيران.

majidi.dr@gmail.com

محسن احمدى

أستاذ محاضر بجامعة حكيم سبزواري، إيران.

الملخص

كان أبو العلاء المعرّي أدبياً ذا مسلك فلسفيّ. وهو الذي أنشأ أساساً جديداً في الأدب. كما كان طه حسين من أدباء الفلاسفة، الذي أسّس أساساً جديدة في مجال علم الاجتماع حول الأدب وعلم النفس؛ وقام هذان الأدبيان بخلق إنتاجات أدبية كثيرة في امتزاج الأدب بالفلسفة وعلم الاجتماع وتعميق الأدب من مجال الإحساس المجرد إلى مجال الفكر، وأخذ الأدباء والعلماء أفكارهمها دارسين إياها منذ أعوام مديدة. أكد طه حسين أكثر من مرة وفي مناسبات عديدة أن أبا العلاء أحبّ شخصية أدبية إليه ويجد عنده دائماً نواحي جديدة جديرة بالدرس. يهدف هذا البحث إلى بيان تأثر طه حسين من أبي العلاء وذكر وجوه التشابه والافتراق في مجالات الأدب، والفكر، والأسلوب بين هذين الأدبيين.

الكلمات الدليلية: أبو العلاء المعرّي، طه حسين، التشابه، الافتراق.

مقدمة

من المشاكل الاجتماعية التي واجهها المجتمع البشريّ في كلّ أطواره التاريخية هي قضية المعاقين. إذا نظرنا التاريخ القديم نظرة دقيقة نرى أنّ المجتمعات البدوية ولاسيما الأسرات كانت تحسب المعاقين مشكلاً خاصاً لها، كما أنّ المجتمعات الكبرى أو الدول لا تهتمّ بتلك القضية إلّا قليلاً. إنّ أبا العلاء قد عاش في عصر لم يكن أيّ إمكانيات تعليمية خاصة للمكفوفين، ولكنّه استطاع أن يحصل على علوم أدبية، ودينية، وفلسفية. وخلق آثاراً فاخرة مملوءة

بآرائه القيّمة. بعد أن مضى عشرة قرون من أيام أبي العلاء طلعت شمس أخرى في سماء الأدب العربيّ وهو طه حسين الذي يعتبر همزة وصل بين الفكر الغربيّ والشّرق العربيّ؛ وقدّم للأدب والثّقافة والاجتماع آثاراً جيّدة. قد يكون المعريّ رائداً من رواد الرّمزية في الأدب بعد "أبي تمام"، أو مرهصاً ببعض الجوانب السورثالية التي تزرع مدرستها "أندره بروتون" في فرنسا، ولكنه على كل حال رجل فريد في أدب العرب، قائم بذاته فناً، وفكراً. (حسين، ١٩٩٥م: ٢٣٨)

وليس بين أعلام لغة الضاد، في تاريخها القديم والحديث على السواء ... كاتباً أو مصنفاً، أو رجل علم وأدب، أو صاحب رأى أو حكمة، جمع في آثاره من ألوان الكتابة نظمها ونثرها، وضروب المعرفة وأشتات الفكر، ما جمع أبو العلاء المعري من هذه الأبواب جميعاً. فهو الشاعر والناظم وهو الناقد والشارح وهو الواعظ والمرشد وهو صاحب حكمة وتفلسف وهو الأستاذ في جميع هذه الوجوه.

ينثر المعريّ آرائه في مصير النّفس ومتاعب الحياة في السّعادة والشّقاء في اللّذة والألم في الموت والبعث في الشّكّ واليقين في الإيمان بالعقل الذي قاده إلى شتى المعضلات الفلسفية تلك التي زادت حيرة وشكاً ولم تهده إلى نتيجة يطمئنّ إليها ضميره وهو بهذا شاكّ وابن خلدون شاكّ أيضاً. فهو يرى أنّ المجتمعات تختلف وتتشابه وأنّ المؤرّخ لا بدّ أن يلمّ بطبائع المجتمع وأن ينفذ "شاكاً" و"معلقاً" كلّ ما يصل إليه من رواية المؤرّخين. ولا شكّ أنّ طه حسين حين يدرس فكر هذين الفيلسوفين لا بدّ وأن يتأثّر من قريب أو بعيد بهما. (كريم، لاتا: ٥٨)

إنّ طه حسين قد سلك مسلك صديقه أبي العلاء في تصوير طباع النّاس الذين أحسن إليهم فأساؤوا إليه، وصارحهم بما ينطوى عليه قلبه من حبّ، فخاتلوه وخذلوه وتأمروا عليه وهو كالطود ينظر إلى ختلهم ومؤامراتهم وكذبهم ونفاقهم بالهزء والسّخرية. (الكياي، ١٩٥١م: ١٠٩)

من جانب آخر خصّص طه حسين ثلاثة كتب من كتبه لأبي العلاء تاماً وهي "تجديد ذكرى أبي العلاء"، و"مع أبي العلاء في سجنه" والآخر "صوت أبي العلاء"، ويأتي بمعلومات كثيرة حول أبي العلاء متفرّقة أو غير متفرّقة. وقد نقد بعض آراء أبي العلاء وشرح بعضها أحياناً. فهذه المقالة تبين أفكار طه حسين وأبي العلاء والقربات والاختلافات بينهما.

حياة أبي العلاء المعريّ

المعريّ هو من أدباء ومفكرى القرن الرابع الذي استطاع تخليد أفكاره عبر شعره وأدبه. (كنجيان خنارى، ١٣٨٩ش:

«فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة، قبل مغيب الشمس بقليل ولد فى معرة النعمان طفل استقبل الوجود لا يحسّه ولا يشعر به.» (حسين، ١٩٨٣م: ١٢٠) هذا الطفل هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله والمعروف بساطع الجمال.

«كانت حياة أبى العلاء مملوءة بنكبات مختلفة قد أثرت فى حياته الفكرية والاجتماعية والأدبية. منها إصابته بالجدرى وهو دون الرابعة من عمره، فسبّب له هذا الداء العمى ومحا من مخيلته جميع الألوان ما عدا اللون الأحمر، وكانت نكبته الأولى التى أورثته شيئاً من التشاؤم.» (غريب، لاتا: ٢٤٨)

«فى مطلع الفتوة يوم له من العمر أربع عشرة سنة، حلّت به النكبة الثانية إذا فقد والده، عضده الوحيدة.» (المصدر نفسه: ٢٤٩)

إنما رجع من بغداد الى المعرة كان القدر يهيبه له النكبة الثالثة وهى موت امه قبل أن يدركها. (غريب، لاتا: ٢٥٠) هذه النكبات الثلاثة قد ازدادت زهده وتشائمه إلى الدنيا وما فيها. فقال المعري: أرانى فى الثلاثة من سجونى / فلا تسأل عن الخبر النبئ / لفقدى ناظرى ولزوم بيتى / وكون النفس فى الجسم الخبيث (اردستاني، ١٣٨٨ش: ١٦)

حياة طه حسين

لتكن حياتك نائرة مثيرة، ولا تجعلها هامة ساكنة ... كلمة بسيطة قالها "أندريه جيد" تضمن فى مضمونها أخطر المعانى ولو أن هذه الكلمة صدقت على واحد من البشر لكان أولى الناس بها طه حسين. (كريم، لاتا: ٢١)

ولد الأعمى البصير فى يوم أربعة عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٩ للميلاد - ١٣٠٧ق فى عزبة "الكيلو" إحدى قرى مركز المغالة بمحافظة المنيا بمصر. (الأرناؤوط، ٢٠٠١م: ٧٩)

طه حسين عوّض عن بصره ذكاء حاداً وذاكرة قوية. وحدّد فقده لبصره الطريق الذى يختاره فى حياته، وهو طريق التعليم الدينى، فالتحق بكتاب، حفظ القرآن الكريم. ولما أتم حفظه أخذ فى حفظ "مجموع المتون" وقراءة بعض الكتب والأشعار القديمة استعداداً لدخول الأزهر. (ضيف، ١٣٦١ق: ٢٧٧ و٢٧٨)

أسلوبهما وميزتهما الأدبية

أسلوب أبى العلاء الأدبى

قد كان أبو العلاء على كلامه شديد الحرص، وبآثاره عظيم العناية كأنه كان يخشى أن يكون بغض الناس له، وشكّهم فى دينه. (حسين، ١٩٨٣م: ١٩٦ و١٩٧)

بعد ما بين لنا أبو العلاء في قوله: «إنه وحشي الغريزة، إنسى الولادة» فهذه الغريزة الوحشية، يستحيل أن يصدر عنها إنسى الشعر، وكما أن صاحبها غريب الأطوار فشعره وآثاره الأدبية، ينبغي أن تكون مثله. على أن هذه الغريزة الوحشية، لم يشتد تأثيرها في شعر الرجل، إلا بعد أن اعتزل الناس. فأعانت هذه الغريزة على وحشيتها واشتداد آثارها. (حسين، ١٩٩٢م: ٥٥٥)

إذا كان نثر أبي العلاء في طور الشباب، كثير التكلف، قليل المتانة، إنما كثر في كلامه التكلف حين حرص على إظهار التفوق، والظفر بالإجادة، فكأنه يملئ عن ميله إلى النبوغ. ذلك لم تخل رسائله من السجع، بل قد تقرأ الرسالة كلها فلا تظفر بجملتين غير مسجوعتين. وكذلك لم تخل رسائله من الغريب. (المصدر نفسه: ٥٦٣)

من أظهر خصاله في نثر أيام عزله، حرصه على الاستصقاء التام، بحيث إذا عرض لمسألة لغوية أو نحوية في طريقه لم يستطع أن ينصرف عنها حتى يستقيصها. (حسين، ١٩٩٢م: ٥٦٥)

ممن قلّد أبا العلاء في آثاره النثرية، هو "دانتى". وهو قلّد رسالة الغفران للمعري في تفاصيل كثيرة، فإن كلا الشعارين - المعري ودانتى - اتخذ رسائله سبيلاً إلى إظهار مقدرته الأدبية واللغوية إلى إبراز معرفته بالتاريخ وإلى التعبير عن فلسفته الدينية.

أسلوب طه حسين الأدبي

قال محمد زكي العشماوي: أجد نفسي مبهوراً دائماً أمام انفجارين بارزين أحدثا ارتجاجاً في قشرة الأرض العربية فشعرت بأنها أخف وزناً، وأكثر قدرة على الدخول في حوار حضاري مع العالم، هذان هما: أولاً: منهج طه حسين في دراسة الأدب ونقده. ثانياً: ما استحدثه في اللغة من أسلوب جديد كتابة ونطقاً. أما "مصطفى صادق الرافعي" فهو نقد طه حسين وأسلوبه وقال: «إنه أول من اجترأ على الأدب العربي بالمسخ والتكلف، ثم كان أول من استعمل الركاكة في أسلوب التكرار كأنه يمضغ الكلام مضغاً، فنزل به إلى أحط منازل، وابتلى العربية منه بالمكروه الذي لا صبر فيه، والمرض الذي لا علاج منه، فصار ذلك له طبعاً بالإدمان عليه، فلا يأتي بالجملة الواحدة إلا انتزع منها الانتزاعات المختلفة، ودار بها أودارت به تعسفاً وضعفاً وإخلالاً بشروط الفصاحة وقوانين العربية، والآفة الكبرى أنه كان يحتسب ذلك إبداعاً منه في الأسلوب وإحكاماً في السبك وطريقة بين المنطق والبلاغة!» (عبدالرزاق، ١٩٩١م: ٢٦٧)

ليس أسلوب طه حسين أسلوب من يجلس إلى نفسه يحدثها في حوار منفرد، بل كان شديد الحرص على أن يجعل كتابته حواراً بينه وبين القارئ، وحواراً يعنى فيه بالتعبير عن نفسه تعبيراً لا يحتاج فيه أن يسمع أسئلة محدثة، ومن هنا نجح الكاتب في خلق صلة دائمة ومستمرة بينه وبين قرائه وفي إبقاء هذه الصلة حية. قد يتهم البعض

أسلوب طه حسين بأنه قد أسرف في الذاتية حتى أفقر إلى الموضوعية التي هي هدف ضروري في كتابة الكاتب. (المصدر نفسه: ٤٢٢)

من أبرز ما يتسم به أسلوب طه حسين أنه أسلوب منبسط عذب تحمل لغته إيقاعها وتوترها وحرارتها وتطرفها من روح الكاتب وشخصيته. وتتنظم عنده الأفكار في ترتيب منطقيّ وتسلسل طبيعيّ أخاذ. والوضوح سمة ظاهرة في أسلوبه فهو لا ينجح إلى تجزئه الجملة أجزاء صغيرة، أو حشر فكرتين أو ثلاث في شكل عمل اعتراضية، أو في كلمات توضع بين قوسين مما يربك القارىء أو يعوق تفكيره. (عبدالرزاق، ١٩٩١م: ٢٦٧)

يجيء طه حسين، وهو مدرسة أدبية مستقلة، وآراؤه في النقد كثيرة، ومنهجه في كتاب حديث الأربعة جامع بين النقد الفنيّ الذي يتابع فيه "جول ليمتر"، والنقد النفسىّ الذي يتابع "سانت بيف"، والنقد الاجتماعيّ الذي يساير فيه "تين"، ولم يقف طه حسين عند نقد الشعر، بل نقد القصة والمسرحية والملحمة الشعرية. (خفاجي، ٢٠٠٣م: ٢٣٨)

التشابه والخلاف بين المعرى وطه حسين

إنّ طه حسين قد درس أبا العلاء درساً عميقاً واختصّ له ثلاثة كتب من آثاره وهذا الأمر دليل على حبه الشديد إلى هذا الأديب كما يقول: «عرفت أبا العلاء إلى خاصة الناس، وأحبّ أن أعرفه إلى عامتهم، وأن أعرفه إلى عامتهم بالترجمة الصحيحة عنه، والتفسير الدقيق لشعره فما الذي يمنع أن أيسر اللزوميات للذين لا يستطيعون أن يقرؤوا شعرها العنيف الذي لا يخلو من غرابة والذي تزور عنه أذواق المتعمقين للأدب العربيّ فضلاً عن الذين لم يأخذوا من هذا الأدب بأطراف يسيرة قصيرة.» (تقى الدين، ١٩٨٧م: ٣١٥)

كما يقول سامى الكياللى صاحب كتاب "مع طه حسين": «مازال أبو العلاء أحبّ شخصية أدبية إلى طه حسين الذى يجد عنده دائماً نواحي جديدة جديرة بالدرس.» هذا ما أكّده طه حسين أكثر من مرة وفي مناسبات عديدة ... فهو يذهب إلى أنّ واحداً، مهما يكن قوياً ماهراً فى البحث متقناً له، لن يستطيع أن يتفهّم وحده أبا العلاء ويظهر الناس على دخيلة نفسه وعلى وجوه مذاهبه فى الأدب والفلسفة وغيرهما من فروعها المختلفة للعقل والشعور ... وليس ذلك بالشىء اليسير لرجل واحد ... بل لا بد فى رأى عميد الأدب من أن يتعاون عليه رجال مختلفون كلّهم قوىّ فى مادّة من مواد العلم. وكلّهم ماهر فى منهج من مناهج البحث. أى يجب أن يفرغ الأدباء الموجودون لأدب أبا العلاء ويجب أن يفرغ الفلاسفة المتقنون لفلسفة أبا العلاء ويجب أن يتقسّم الأدباء فيما بينهم أدب أبا العلاء فيفرغ قوم شعره العادى وآخرون لشعره الفلسفىّ، ويفرغ قوم لثره العادى وآخرون لثره الفلسفىّ، وثم يجب أن يفرغ علماء النحو واللغة لعلم أبا العلاء بالنحو واللغة وما يتصل بهما، وعلى هذه القاعدة يستطيع كلّ هؤلاء

الباحثين أن يخلصوا من درس أبي العلاء إلى نتائج - إن لم تكن مقنعة مزيلة للشك فهي مرضية مشجعة على الأمل. هذه هي وجهة نظر طه حسين في دراسة شخصية أبي العلاء وأدبه وفلسفته. (سامي الكيالي، ١٩٥١م: ١٠٢ و١٠٣)

التشابه بين الأدبيين

١. مصادر فكرهما

ما نجده في شعر أبي العلاء وأفعاله من آثار الفلسفة اليوناني وما شاع زمنه من المعتقدات الفارسية والآراء الهندية. لم يرتجل أبو العلاء آرائه ارتجالاً في الفلسفة، والحياة، والمرأة، والزواج، والنسل، وتحريم أكل اللحم، وطرح الشهوات، واتخاذ الزهد خلّة وإنما صدر بها عن منابع موجودة في الأفكار العتيقة الرومية والعجمية. (زكي المحاسني، ١٩٤٧م: ١٧)

إنه قد عرف بثلاثة الأفكار أثناء رحلاته، لاسيما رحلته إلى بغداد:

١. أفكاره التي وصفت ببيونانيتها. ٢. أفكاره التي بدت بفارسيته. ٣. أفكاره التي اتصلت بهنديتها.

كان مذهب "ديوجينيس الكلبي" الفيلسوف اليوناني الشهير، الزهد والتشّف والقناعة بشطف العيش. كان يقول بالتّزيّن الروحيّ وعنده أن عمارة الذّهن بالحكمة، وجلاء العقل بالأدب وقمع الشّهوة بالعفاف، و... هي صفات حرص المعريّ على الاتّصاف بها منذ عزلته. (المصدر نفسه: ١٨)

أمّا أثر العقيدة الفارسيّة في أفكار أبي العلاء فقد ظهرت جليّة في كرهه الزّواج وبعده عن ذبح الحيوان لئلاّ يألّم، فإنّ أصحاب "ديسان" الذين اتّسموا بالديّسانية وهم فريق من مجوس الفرس القائلين بالثنويّة في مذهب النّور والظلمة، والخير والشرّ قد حكى عنهم "محمّد بن شنب" أنّهم يرون المناكحة حراماً ويحترزون عن ذبح الحيوان لما فيه من الألم. هذه آراء أبي العلاء، فقد نقد الزواج وذمه وقال بعدمه فكأنّه حرّمه وجرى مذهبه في عدم ذبح الحيوان لئلاّ يألّم. (زكي المحاسني، ١٩٤٧م: ١٨ و١٩)

أمّا أثر الآراء الهنديّة في مذهب أبي العلاء في النّساء والنّسل والشّهوات الجسمانيّة وقد كانوا يزعمون أن لا خير في اتّخاذ النّساء والرّغبة في النّسل ولا في شيء من الشّهوات الجسدانيّة. (المعري، ١٣٤٩ق: ٢٠)

قصر طه حسين مصادر ثقافته العميقة الواسعة في ثلاثة مصادر كبرى: الأدب العربيّ القديم والعلوم الأزهرية، والفكر الفرنسيّ، والفكر اليونانيّ واللّاتينيّ القديمان. (بكار، ١٩٩١م: ١٢٣)

طبيعيّ أن موقفه من الأدب اليونانيّ أملاه عليه اتّصاله الوثيق بالفكر اليونانيّ والرّومانيّ وشغفه بهما وتدريسه لهما ما يقرب من ستّ سنوات، فكان أن نادى، بقوة وعزم، بوجود تدريس لغة اليونان والرّومان في مصر منذ المرحلة

الثانوية. وطبيعيّ أيضاً أن يكون إحدى الكوى التي هبّت عليه منها ريح الاتّهام بالتّعصّب والمغالاة في الانحياز إلى الثقافة اليونانية، والتي أثارت عليه النّقاد والمخالفين دون أن تزحزح من موقفه شيئاً. (عبدالغنى، ١٩٧٥م: ٥١)

٢. نزاعاتهما العقلية

أراد المعريّ أن يحكّم العقل في كلّ شيء، وأن يحلّ جميع المشاكل طريق العقل وحده، مع أن هنالك أموراً لا يمكن للعقل أن يحلّها كما يرى المعريّ نفسه (فروخ، ١٩٨٩م: ٣٨):

أَمُورٌ يَلْتَبَسْنَ عَلَى الْبَرَايَا كَأَنَّ الْعَقْلَ مِنْهَا فِي عِقَالٍ

كان المعريّ مؤمناً بأنّ العقل هو الإمام الفرد والنبي المرشد إلى المعرفة. (غريب، لاتا: ٢٥٧)
إن فلسفته تنحصر في تعريف واحد "من الشكّ إلى اليقين" فقد اتّخذ طريق الشكّ للوصول إلى اليقين، ولكنّه انحصر في دائرة الشكّ. (رضا، ١٩٨٧م: ٢٥٧)

طه حسين يتكئ على العقل ويشكّ في منهجه كما يشكّ "ديكارت". ولقد أيد الدكتور طه حسين دعوته إلى المنهج العقليّ في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" وذلك حين قرّر أن مصر كانت طوال تاريخها ذات مزاج عقليّ خاصّ، بدليل تأثيرها وتأثرها باليونان الذين هم رمز للفكر المنطقيّ الهادئ. (العشماوى، ١٩٩٥م: ٤١٢)
يقول الدكتور طه حسين في كتابه "في الأدب الجاهليّ": «أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفيّ الذي استحدثه "ديكارت" للبحث عن حقائق الأشياء في أوّل هذا العصر الحديث، والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدّين والفلسفة يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثراً، وإنّه قد جدّد العلم والفلسفة تجديداً، وإنّه غيرّ مذاهب الأدباء في أدبهم، والفنانين في فنونهم، وإنّه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث. (المصدر نفسه)

٣. عدم ثبات رأيهما في الدّين واتهامهما بالزندقة والإلحاد

إيمان المعريّ بالعقل يدفعه إلى الشكّ والإنكار مرّة، ويدفعه إلى الإيمان واليقين مرّة أخرى. وهو إذن متردّد في الفصول والغايات كما هو متردّد في اللزوميات. يقطع بشيئين: أحدهما وجود الله وحكمته والآخر انقطاع الصّلة بين الله والنّاس إلا من طريق العقل ومن طريق العقل وحده. وإذن فهو في حاجة إلى أن يفهم حكمة الله وهو عاجز عن فهم هذه الحكمة، وإذن فهو غير مطمئن إلى النّبوات وهو محتاط إلى إعلان شكّه في النّبوات. (حسين، ١٩٨٣م: ٤٧)

الدكتور طه حسين مصرىّ مسلم، شهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله فى وقت كان له فيه مع الدّين - أو مع القرآن على التّحديد - موقف لم يشرفه، بل كاد يعصف به ويخرجه من محيط المسلمين إخراجاً عنيفاً. والنّاس لا يزالون يذكرون إنكاره لبعض قصص القرآن الذى هو أساس هذا الدّين. (عبد الرزاق، ١٩٩١م: ٣٩١ و٣٩٢)

كما إنهما متّهمان بالزندقة والإلحاد أحياناً. يقول طه حسين: «إنّ الإسلام مدّ لانتشار الثقافة اليونانية فى بلاد الشرق البعيد وكأنّه لم يكن لديه شىء يقدمه حتى انتظر ليستعين بالثقافة اليونانية. يسوق طه حسين مذهباً مضطرباً ومعوّجاً يحاول به أن يقحم الفكر اليونانىّ فى المبادئ الإسلامية لا لشىء سوى أنّه يريد أن يثبت الغلبة للثقافة اليونانية ليجعل من مصر تابعة للغرب وليس للشرق دون انتباه لأنّه يناقض بذلك نفسه مناقضة تامّة فيما يقول فقد مرّ بنا إنّه لم ير للمسيحية تأثيراً فى العقل الأوروبىّ ولكنّه حين أيقن أنّ تأثير الإسلام فى العقل العربىّ لا مفرّ من الاعتراف به أثبت للمسيحية دوراً فى العقل الأوروبىّ بعد أن مازج بينها وبين الثقافة اليونانية وحاول أن يشبه تأثير الإسلام فى العقل المسلم على نفس النحو الذى أثرت به المسيحية فى العقل الأوروبىّ تحت تأثير الثقافة اليونانية.» (نور عوض، لاتاريخ: ٥٩ و٦٠)

يرى أنّ القرآن هياً للغة العربية وآدابها سرعة الانتشار فى الأقاليم التى خضعت من قبل للثقافات السّامية من آرامية ويهودية وهى العراق والشّام والجزيرة وهياً لها الانتشار فى مصر التى خضعت للثقافيين اليونانية والقبطية كما هياً لها الانتشار فى إقليم فارس الذى برغم أنّه احتفظ بلغته، فقد تمّ إخضاعه للثقافة العربية وأصبح الأدب العربىّ فيه معياراً للمستوى الثقافى العامّ. (المصدر نفسه: ٩٠)

يحدّثنا طه حسين عن الكيفية التى فرق بها بين الدّين والأوضاع الدّينية فيقول: «وإذا هو مؤمن أشدّ الإيمان وأقواه حتى يظنّ به النّصوّف منكر للكنيسة أشدّ الإنكار نائر عليها أعظم ثورة ولكنّه لا يؤمن إيمان المقلّد إنّما مؤمن إيمان المجتهد فيعرض له الشكّ ويؤذيه الريب.» (نور عوض، لاتا: ١٦٠)

٤. فى العلم والدّين

تعتبر قضية العلاقة بين العلم والدّين من القضايا المهمّة فى فكر طه حسين ولانبالغ أن قلنا أنّ معظم مشاكله الفكرية قد أتت إليه من الاختلاف حول مفوماته المتّصلة بالدّين. وعلى وجه الإجمال لم يكن طه حسين يعتبر الدّين شرطاً لازماً من شروط الأمة.» (المصدر نفسه: ١٧١)

ينتهي إلى سخرية بالغة حين يقول: «أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية في حصن مقدس منيع لاتصل إليه أبخرة العدس والفول والزيّ والطعميّة وغير ذلك ممّا نأكله لنهضمه مرّةً ولا نهضمه مرّةً أخرى وينشأ عن سهوله الهضم وعسره حسن تفكيرنا وسوءه.» (نور عوض، لاتا: ١٧٢)

وأيضاً يقول طه حسين: «والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأنّ الدين أسنّ من العلم ولأنّهُ كان في العصور القديمة كل شيء. كان ديناً وكان علماً ولأنّ العلم جاء بعد ذلك فغير هذا القسم العلميّ من الدين وأبيّ الدين أن يذعن هذا التّغيير وأبي العلم أن ينزل عمّا ظفر به من الثّمرات فلن يتّفقا إلا إذا جحد أحدهما شخصيته.» (المصدر نفسه: ١٧٤)

فنفهم أنّ طه حسين لم يكن مؤرخاً إسلامياً كما لم يكن مفكراً إسلامياً. لم يكن مؤرخاً إسلامياً لأنّه لم يحفل باستقصاء الأحداث وتوثيقها وتبويبها ولم يكن مفكراً إسلامياً لأنّه لم يحفل بالجانب العقديّ في الإسلام ولم ينظر إلى الدين كعقيدة حاولت تغييرها من العقائد تحديد طريق الخلاص الروحيّ للإنسان وإمداده بنظرية جديدة في المعرفة يدرك بها الواقع الذي يعيش فيه. (نور عوض، لاتا: ٢٣٥)

ويرى أنّ اختلاف موضوعات القرآن لا تؤثر في جوهر فكره، وهو الفكر الذي قامت عليه دعوة الإسلام ويجملها في التّوحيد والإيمان بالله وبكتبه وباليوم الآخر. (المصدر نفسه: ٢٤٥)

الدروس الفلسفية التي كان يلقيها أبو العلاء قد شاعت عنه وتناقلها النّاس، فرأى النّاس من ذلك شيئاً لم يعرفوه. وما زال في أهل الأرض المنكر للجديد، السّاخطُ على الحديث. فرموا الرّجل بالزندقة؛ وأتهموه في دينه. (حسين، ١٩٩٢م: ٥١٠)

ممّا زاد في أتهمه بالزندقة والإلحاد تكاثر الحساد والخصوم الذين ظهر عليهم المعريّ شعراً وفلسفة فأرادوا التخلّص منه برميّه بالإلحاد تارة والزندقة طوراً. ورغم مرارة انتقاده للحكم ورجال الدين والنّاس عامّة فلم يستطع أحد أن يناله بأذى. (رضا، ١٩٨٧م: ٢٥٧)

حال طه حسين كان كحال صديقه لأنّ الحزبيون هم الذين اختبأوا طه حسين وراء الرّجعيين من رجال الدين. (الكيالي، ١٩٥١م: ٥٣)

بعد انتشار كتابه "في الشّعْر الجاهليّ" انقسم النّاس فريقين: فريقاً معه، وهم صفوة المفكرين؛ وفريقاً عليه وهم الكثرة المطلقة من مختلف الطبقات ... وقد تزعم هذه الحركة حماة الدين أو علماء الجامع الأزهر، فاجتمعوا وقرروا وأكثرهم لم يقرأ الكتاب - قرروا أنّ في كتاب الدكتور طه كفرةً صريحاً، وطالبوا الحكومة بمصادرته ومنع مؤلّفه عن التدريس كيلا يفتن نابته الأمة بما بيّنه فيها من أضاليل. (المصدر نفسه: ٥٣)

٥. في الجبر

أظهر آراء أبي العلاء في الفلسفة الإلهية الجبر، فإن حياته وشعره في اللزوميات ينطقان به. قد ذكر الجبر في اللزوميات أكثر من مائتي مرة، فمنها يثبتته ويناضل عنه، ويبسط سلطانه على الحياة العلمية للأفراد والجماعات. عالج الفلاسفة قضيتي التّخيير "حرية الإنسان في أعماله" والتّسيير "أن يكون مجبراً عليها". وقد وقف أبو العلاء من هاتين القضيتين موقف المتردد، قال:

مَا بِإِخْتِيَارِي مِيلَادِي وَلَا هَرَمِي وَلَا حَيَاتِي، فَهَلْ لِي بَعْدُ تَخْيِيرُ
وَلَا إِقَامَةً إِلَّا عَن يَدِي قَدْرٍ وَلَا مَسِيرًا إِذَا لَمْ يَقْضَ تَسْيِيرُ

لم يعتقد أبو العلاء بتعطيل إرادة العبد. وإنما بنى كلّ نقده الاجتماعيّ على اختيار الأعمال فلو قال بالجبرية لبطل نقده كلّ وانتقض. وهو إن قال بالإجبار فقد جعله في الأمور التي لا قبل للإنسان بها، ولا تكون برأيه وأمره، كالولادة والموت والحظوظ والأقدار. (المحاسني، ١٩٤٧م: ٢٦)

كذلك اقتنع طه حسين بمبدأ الجبر الاجتماعيّ في الأدب قبل سفره إلى فرنسا. (نور عوض، لاتا: ٢٢٥) إن طه حسين كان من الذين يؤمنون بالجبر التاريخيّ أو كان من الذين يؤمنون بأن لا مناص للأديب من أن يكون صورة من صور مجتمعه ولا شكّ أنّ هذا الموقف قد أوقعه في بعض الخصومات مع الشبان من جيله، أولئك الذين لا يؤمنون بالجبر التاريخيّ أو الذين يفهمون علاقة الأديب بمجتمعه على نحو آخر. (المصدر نفسه: ١٨٢)

٦. إصلاح المجتمع عندهما

أبو العلاء وقد تناول بنقده المجتمع في مظاهره وبواطنه كان جديراً أن ينظر إلى الغنى والفقر نظرة متمكّن أريب ونقادة عجيب. (زكي المحاسني، ١٩٤٧م: ٧٠)

يوصى بإطاعة الملوك ويذكر ضرورتهم للنّاس، وأنّ على المرء احتمال ظلمهم لأنّهم يحمون الذمار وما خلا ملك من الملوك من الظلم والجور قد نقد الملوك والأمراء فتبيّن مظالمهم وعسّفهم، ووجه الباطل في أخذهم الجزية والمكوس، واحتجّانهم أموال الأمة وانتهى من تشبيه الشعب الغافل إلى الأخذ بحقّه ومطالبته الحكم. (المصدر نفسه: ٥٧)

طه حسين أيضاً يريد لمصر أن تخطو خطوات سريعة في ميادين العلم والمعرفة، ألمه أن لا يكون لمصر برنامج علميّ عمليّ، تجاريّ فيه الأمم الحية في نظمها التّعليمية وطرق دراساتها الحرّة. (الكيالي، ١٩٥١م: ٩٦)

من الخصائص التي تميز بها طه حسين كواحد من أبرز الأدباء والمفكرين في زمنه إحساسه بقيمة التربية كأداة يتوجّه بها المجتمع نحو التقدّم والانطلاق ولعلّه انفرد أن سائر الأدباء المصريين برؤيته الخاصة لمستقبل التربية في مصر ... ما يميز طه حسين في الإطار العربى الحديث هو أنّه خالف الفكر السائد في بيئته فلم ير التقدّم رهنا بالانعتاق السياسىّ وحده. ولم ير الانطلاق رهنا بمشاريع التقدّم المادى وحدها بل رأى في التغيير الذى يحدث للإنسان أساساً لتقدّم البيئة الحضارية. (نور عوض، لاتا: ٥٥)

موقف طه حسين من التغيير الاجتماعىّ الذى أحدثه الإسلام في حيات العرب أن نقفل طبيعة التوجّه التربوىّ والتعليمىّ في شخصية طه حسين. لقد كان طه حسين مصلحاً اجتماعياً وكان يرى التعليم وسيلة يحدث بها التغيير في حياة الجماعة البشرية ومن هنا كان أوّل ما اتجه إليه عقله أمرين. مصادر التعليم النافع، ثم الأسلوب الذى يتّخذه التعليم ليصبح أداة من أدوات الإصلاح الاجتماعىّ وهكذا فعل في تقويمه لثورة الإسلام. وأمّا مصادر التعليم الإسلامىّ عنده فقد كانت أرقى ما تطمح إليه البشرية وتتلخّص في العلم الربانى والوحى فلم يكن الرسول رئيساً لحزب واستهدف القيام لثورة اجتماعىّ ولم يكن ممثلاً لجماعة سرية، بل كان مرسلًا من عند السماء لذلك فإنّ ما أتى به كان يمثل قمة الخلاصة في النظم الاجتكاكية السليمة. (المصدر نفسه: ٢٤٣) عندما أصبح وزيراً للتربية والتعليم فنادى بتكافىء الفرص ويصبح بأنّ التعليم ضرورى لكلّ أفراد الشعب ضرورة الغذاء والماء والهواء، ويفكّه من عقال المصاريف، ويجعله مجّاناً للشعب كلّ. (ضيف، ١٣٦١ق: ٢٨٤ و٢٨٣)

الخلاف بين الأدبيين:

١. في السياسة:

لم يكن لأبى العلاء بالسياسة العلمية كبير الأتصال، ذلك لأنّ ذهاب بصره يحول بينه وبين لقاء الملوك والأمراء، إذا لاحظنا أنّ حياؤه كان شديداً، وأنّ حرصه على ألا يظهر تقصيره عن شأو المبصرين في الأوضاع العامّة كان عظيماً. كما أنّ فطرته ودرسه وفلسفته وجملة حياته المادّية والعقلية، كانت تحول بينه وبين قصور الملوك والأمراء ودواوين المشورة والحكم، وقد دعى الرجل إلى منادمة "عزيز الدولة" فاعتذر بكبر السنّ وقلة البضاعة. (حسين، ١٩٩٢م: ٥١٢ و٥١٣)

فعدّ طه حسين توسطه هذا ممارسة سياسية حقيقية واعتذاره للأمير بعداً عنها. (المحاسنى، ١٩٤٧م: ٦٦) لكنّ طه حسين قد شارك في السياسة عندما سنحت له الفرصة. ولما يصدر حزب الأحرار الدستوريين صحيفة السياسة، وأصبح محرّرها الأدبىّ، ثم أصبح عميداً لكلية الآداب ولم يلبث أن ينضمّ إلى حزب الوفد. وبعد ذلك كان

قد ترك الجامعة ليعمل في وزارة التربية والتعليم وعين مستشاراً فنياً لهذه الوزارة وفي سنة ١٩٥٠م أصبح وزيراً للتربية والتعليم. (ضيف، ١٣٦١ق: ٢٧٩ و ٢٨٣)

٢. في المرأة:

كان موضوع المرأة من الأمور التي سكب المعري كثيراً من كلامه فيها. بل يكاد يكون أبرز ما عنى به، وحاوّر نفسه فيه، وأطال ذكره ونقاشه. وما كان للمرأة أن تبدوا حفية بهذا الذكر، ولا راضية عنه. لأن المعري عرض على الملاء كل مثلبة ونقيضة في المرأة، فنقدها نقداً عنيفاً لا يعرف هوادة الذين يعاجلون مواضيع النساء. (المحاسني، ١٩٤٧م: ٢٢)

هجم بالتلوم على المرأة، فكان في أول دعوته يدعو إلى إهمال السلام عليها، والضن بالإيماء إليها بالتحية فإن من أخلاقها التظلم والتشكى وهي شر ظالمة، فقال:

ولا تَرَجِعْ بِإِيمَاءِ سَلاماً على غَيْدِ أَشْرِنَ مَسلمات
أولاتُ الظُّلمِ جِنَّ بَشَرٍ ظُلم وقد واجهنَّ متظلمات

(المصدر نفسه: ٢٥)

وهو يعتقد أن المرأة لا تحتاج إلى التعليم وعليها أن تقف في بيتها وتربي أولادها وإن حفظت سورة الإخلاص والناس وقرأتهما في صلاتها أعطاه الله أجر البقرة ويونس.

أما رأى طه حسين حول المرأة خلافاً لأبي العلاء لأنه يقول: «إن موقفي من المرأة نشأ عن إقتناعي بدورها قبل أن يكون موقفاً شخصياً، لقد قرأت كتب قاسم أمين عن تحرير المرأة وتأثرت بها جداً، وقد ازداد وقوفي إلى جانب المرأة خاصة بعد أن سافرت إلى فرنسا.» (عبد الرزاق، ١٩٩١م: ٤٤٢)

والحياة ذات جوانب متعددة جانبها الأساسي يقوم في الأسرة. وكيفية تكوينه، والزواج هو الوسيلة المشروعة لبناء الأسرة فيجب أن يقوم على أساس متين من حيث التفاهم بين الزوجين واقتناع كل منهما بصاحبه، شكلاً وموضوعاً، وإن أي عقدة في هذا الرباط المقدس تعرضه للتمزق. (تقي الدين، ١٩٨٧م: ١٨٥)

يدافع طه حسين عن تحرير المرأة ويكون صاحب الرأي المشهور وهو وحدة التعليم أي ليس رديئاً وقبيحاً أن يكون الطالب والطالبة في صف واحد.

٣. في الديمقراطية

نحن نرى أبا العلاء عارفاً بفكرة الشبوع، قائلاً بالإشتراك وحاضراً على الديموقراطية وهي أقوال لاغرابة أن تظهر منه. فهولم يخترعها اختراعاً وإنما عرفها من الثقافة اليونانية التي تنهت إلى عصره مترجمة ووعاها في تعاليم الإسلام الحنيف بما يتفق والحق بالتساوى. (المحاسنى، ١٩٤٧م: ٧٦)

ولكن طه حسين هو القائل: «إنى لا أحب الديموقراطية المحافظة ولا المعتدلة ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة ويكتب "المعذبون فى الأرض" فتتهمه السلطات فى ذلك الوقت بأنه "شيوعى" على حدّ تعبيره فى حديث صحفىّ بمجلة الإذاعة والتلفزيون ويغضب حين تذهب مجلة "الفجر الجديد" اليسارية فى تقييمها لفكره الذى ينتمى إلى الفكر الليبرالىّ البرجوازىّ فيردّ متعرضاً على كلمة البرجوازىّ وله الحقّ فى ذلك فكاتب "المعذبون فى الأرض" وصاحب شعار مجانيةّ التعليم ونصير الفقراء لايجوز أن يكون برجوازياً. مع أنّه لم يرض بالليبرالية البرجوازية ... فدراسة فكره ومواقفه العلمية تؤكّد أنّه لم يكن أبداً يسارياً ولا يمينياً تقليدياً هو بين اليسار واليمين.» (كريم، لاتا: ٥٨)

كان طه حسين قاسياً على نفسه وعلى طلباه وعلى غيره من الكتّاب فى زمنه ولكنّ على رأى الدكتور "يوسف نور عوض" أن طه حسين كان مؤمناً بالحرية والمساوات وكرامة الإنسان وإنه حضرى الغريزة بدوىّ السيرة محبّ للأسفار. (نور عوض، لاتا: ١٦٠)

٤. التشاؤم

يعرض طه حسين إلى معنى التشاؤم والتفاؤل فى كتاب "مع أبى العلاء فى سجنه" فيرسم صوراً من نفسيته ونفسية أبى العلاء، نفسية طه حسين المتفائلة ونفسية أبى العلاء المتشائمة. (الكياى، ١٩٥١م: ١٠٤)

فتشاؤم المعرىّ، عند طه حسين، مصدره العجز عن تذوّق الحياة والقصور عن الشّعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ومن نعيم ولذة. (المصدر نفسه: ١٠٣)

كما يقول طه حسين: «سيقول قائلون إنى متشائم مسرف فى التشاؤم وعلم الله ما تشاءمت قط وما كنت إلّا متفائلاً.» (نور عوض، لاتا: ٢٢٨)

إنّ التشاؤم ظاهرة عامّة بين المكفوفين ولايمكن إنكاره ومصدره لا يكون إلّا إشاعة التعميم "الاستقراء الناقص بين المكفوفين" لأنّ المكفوف إذا رأى سوء التعاطى من أهله أو صديقه أو أحد من الناس خاصّة بالنسبة إلى نفسه، قد يظهر فى فكرته هذا الظنّ أن كلّ إنسان يعمل هكذا فى المجتمع. مثلاً إن قلت للمكفوف إنى رأيتك فى شارع فلان أنّك مشيت قلقاً مضطرباً. قد تآثر هذا القول فى ذهنه وبقي فيه لمدّة طويلة من حياته أو نقول حتى نهاية عمره. ولكنّه يحاول التفوّق على هذا القلق والاضطراب فى مشيه ويؤذيه قولك أثناء ممارسته ويظنّ أن كلّ راجلٍ وسائقٍ واقفون وينظرون إليه لكى يعلموا كيف يمشى ويمرّ بالرّصيف ويتجاوز عن السّدود والجداول وكيف يمرّ بعرض الشّارع. وجود

هذا الفكر قد يكثر فيه قلقه واضطرابه. وإن لم يرتض من هذه المحاولات يميل إلى العزلة شيئاً فشيئاً. وهنا نستطيع أن نقول إن التشاؤم يؤدي إلى العزلة.

النتيجة

الآن يمكن القول إن رغم وجود الفاصل الزمني بين طه حسين وأبي العلاء، هناك قرابات بينهما. وبسبب وجود التشابهات في أفكارهما نفهم أن طه حسين قد تأثر من آراء أبي العلاء وأفكاره وأدبه في مجالات الأدب، والفكر، والأسلوب. وبقراءة هذا البحث، يحصل القارئ على هذه النتائج:

التشابهات: كلاهما قد تأثرًا بالثقافات الأجنبية لاسيما الثقافة اليونانية. وكلاهما يتكئان على العقل ويشكّان في منهجها

أتهما كلاهما بعدم ثبات رأيهما في الدين وانهما بالزندقة والإلحاد. يعتقدان بالجبر إلى حد ما وكانا ينقدان المجتمع ويحرصان على إصلاح شعبهم.

وأما الخلافات: قد شارك طه حسين رغم أبي العلاء في السياسة والمعري نقد المرأة نقداً عنيفاً، أما طه حسين فيخالفه حول المرأة؛ هو يدافع عن تحرير المرأة. كان أبو العلاء قائلًا بالاشتراك وحاضاً على الديمقراطية بينما قال طه حسين: إنني لا أحب الديمقراطية المحافظة ولا المعتدلة ولا أقنع بالاشتراكية الفاترة. كانت نفسية طه حسين متفائلة ونفسية أبي العلاء متشائمة.

المصادر والمراجع

اردستاني رستمى، حميدرضا. ١٣٨٨ش. «نابيتاي در معره، شوريدگاني در ايران (بررسی زندگى، شعر، آرا وعقايد ابوالعلا معرى ومقايسه او با خيام وصادق هدايت)». فصلية مطالعات ادبيات تطبيقى. سال دوم. شماره ١٢. صص ٣٢-١١.

الأرناؤوط، محمود. ٢٠٠١م. أعلام التراث فى العصر الحديث. الكويت: مكتبه دار العروبه; بيروت: دار ابن العماد. بكّار، يوسف. ١٩٩١م. أوراق نقدية عن طه حسين. الطبعة الأولى. بيروت: دار المناهل.

تقى الدين، السيد. ١٩٨٧م. طه حسين آثاره وأفكاره. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

حسين، طه. ١٩٨٣م. المجموعة الكاملة؛ اللحظات. المجلد ١١. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة.

- حسين، طه. ١٩٩١م. من تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأوّل. الجزء الثاني. الطبعة الخامسة. بيروت: دار العلم للملايين.
- حسين، طه. ١٩٩٢م. في تاريخ الأدب العربي. المجلد الثالث. الطبعة الثانية. بيروت: دار العلم للملايين.
- حسين، طه. ١٩٩٥م. الأيام. المجلد الأوّل. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
- خفاجي، محمد عبدالمنعم. ٢٠٠٣م. مدارس النقد الأدبي الحديث. الطبعة الثانية. القاهرة: مطبعة الدار اللبنانية المصرية.
- رضا، ن. ١٩٨٧م. شرح ديوان سقط الزند. دون مرحلة الطباعة. بيروت: دار المكتبة الحياة.
- ضيف، شوقي. ١٣٦١ق. في الأدب العربي المعاصر في مصر. الطبعة الرابعة. مصر: دار المعارف.
- ضيف، شوقي. لاتا. الأدب العربي المعاصر في مصر. الطبعة العاشرة. القاهرة: دار المعارف.
- عبدالرزاق، أبوبكر. ١٩٩١م. وثائق قضايا طه حسين. بيروت: المكتبة العصرية.
- العشماوي، محمد زكي. ١٩٩٥م. أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنيّة (الشعر، المسرح، القصة، النقد الأدبي). إسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- غريب، جورج. لاتا. النماذج الشعرية المجلّلة. قيد الطبع. بيروت: نشر دار الثقافة.
- فروخ، عمر. ١٩٨٩م. عبقرية العرب في العلم والفلسفة. الطبعة الخامسة. بيروت: المطبعة العصرية.
- الكيالي، سامي. ١٩٥١م. مع طه حسين. الطبعة الثانية. مصر: دار المعارف.
- كريم، سامح. لاتا. معارك طه حسين الأدبية والفكرية. بيروت: قيد الطبع.
- گنجیان خناری، علی. ١٣٨٩ش. «بديني فلسفی در اندیشه ابوالعلاء معری و آرتور شوپنهاور». فصلية مطالعات ادبيات تطبيقي. سال چهارم. شماره ١٣. صص ١٣٧-١٥٧.
- المحاسني، زكي. ١٩٤٧م. ابوالعلاء ناقد المجتمع. الطبعة الأولى. القاهرة: دار الفكر العربي.
- المعري، ابوالعلاء. ١٣٤٩ق. رسائله إلى داعي الدعوة الفاطمي. مصر: مطبعة السلفية.
- نور عوض، يوسف. لاتا. الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين. بيروت: دار القلم.